



الثبات على العلم الصحيح



الشيخ يوسف بن حسن الطحطاوي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يقول الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

في هذه الآية: يأمر الله تعالى نبيه ﷺ ويوصيه بالثبات على الطاعة والمداومة على العبادة بأنواع القربات في جميع الأوقات على اختلاف الحالات، حتى يأتيه الموت.

وهذه الوصية هي وصيته تعالى لعباده المؤمنين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، أي: استمروا على التقوى، واستقيموا عليها، واثبتوا على ذلك إلى الممات.

فامتثل ﷺ أمر ربه، وأرشد أمته إلى المداومة على العمل الصالح - وإن كان قليلاً - لما في الدوام على ذلك من النشاط، وزيادة الثواب بتكرار العمل، والاستعداد للقاء الله، ودوام الصلة به، وتحقيق العبودية له، وتعريف الآخرين بهذا العمل المداوم عليه، ونحو ذلك من الفوائد التي لا تتحقق في العمل المنقطع، وهذا حقيقة الاستعداد للقاء الله، كان زياد بن جرير رضي الله عنه يقول: «تجهزتم؟» فسمعه رجل يقول: ما يعني بقوله: «تجهزتم؟» فيقول: «تجهزوا للقاء الله تعالى»^(١)، ولهذا كان هدي نبينا ﷺ الثبات على الأعمال الصالحة، والدلالة على ذلك.

وقد أخبر أن هذا العمل من أحب الأعمال إلى الله تعالى. عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سئل: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «أدومُهُ وإن قلَّ»^(٢).

وفي الصحيحين من حديث علقمة قال: سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، كيف كان عمل رسول الله ﷺ؟ ... قالت: «...»

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/١٩٧).

(٢) رواه مسلم (٧٨٢).

كان عمله ديمَةً»^(٣)، أي: يداوم عليه من غير انقطاع، فلم يكن من هديه قطع العمل الذي يعملُه، بل يداوم على ذلك ويلازم فعله.

قال ابن كثير رحمه الله: «فجميع عمله كان على منوال واحد»^(٤) اهـ، فمن سلك سبيل النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب وغيره، ومشى على طريقه كان أقرب إلى الله من غيره، ومتى علم الله من قلب عبده الحرص على صالح العمل أعانه وسدده وثبته.

وإن مما يُعين على الاستمرار على الأعمال الصالحة: اليقين بقاء الله، وأن عمل المؤمن لا ينقضي إلا بالموت، والشعور بدوام التقصير.

قال الحسن البصري رحمه الله: «أبي قوم المداومة، والله ما المؤمن الذي يعمل شهراً أو شهرين، أو عاماً أو عامين، لا والله، ما جعل الله لعمل المؤمن أجلاً دون الموت»^(٥).

يقول الحافظ ابن رجب رحمه الله: «وينبغي للمؤمن أن لا يزال يرى نفسه مُقَصِّراً عن الدرجات العالية، فيستفيد بذلك أمرين نفيسين: الاجتهاد في طلب الفضائل، والازدياد منها، والنظر إلى نفسه بعين النقص»^(٦).

وإن من المظاهر المحزنة: ما يرى على كثير من الناس -إلا من رحم الله- من تَرَكِ الطاعة التي كانوا عليها، بل والاطمئنان إلى قبولها، ومن هذا مقابلة نعمة التوفيق لصيام شهر رمضان بارتكاب المعاصي بعده، وهو من فَعَلَ من بدَل نعمة الله كفراً، وهذا خطأ عظيم يجب الحذر منه، وهو خلاف ما كان عليه سلفنا الصالح رحمهم الله،

(٣) رواه البخاري (٦٤٦٦)، ومسلم (٧٨٣) واللفظ له.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤٧٨/٦).

(٥) رواه أحمد في الزهد (١٥٦٨).

(٦) جامع العلوم والحكم (٣٠٩/١).

فقد كان السلف يجتهدون في إتمام العمل وإكماله وإتقانه، ثم يهتمون بعد ذلك بقبوله، ويخافون من رده، وهؤلاء هم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾» (٧).

يقول أبو عثمان الحيري رضي الله عنه وقد سُئِلَ: ما علامة السعادة والشقاوة؟ فقال: «علامة السعادة أن تطيع الله وتخاف أن تكون مردوداً، وعلامة الشقاوة أن تعصي الله وترجو أن تكون مقبولاً» (٨).

إن من سمات المسلم الصادق حقاً في عبوديته لله جَلَّ وَعَلَا: ثباته على طاعة الله جَلَّ وَعَلَا ومداومته عليها، ومسارعته إلى أبواب الخير بكافة أنواعها ناصباً بين عينيه الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، والاهتداء بهدي أنبياء الله ورسله فقد وصفهم الله جَلَّ وَعَلَا بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وواضعاً أمامه امثال أمر ربّه في قوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وإن من نظر في واقع الصحابة رضي الله عنهم وتأمل في حالهم في القيام بالخير والمسابقة إليه يرى عجباً من كثرة أسئلتهم للنبي صلى الله عليه وسلم في هذا.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول

(٧) رواه الترمذي (٣١٧٥).

(٨) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٤٦/١٠).

الله، أيُّ الناس أحبُّ إلى الله؟ وأيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحبُّ الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحبُّ الأعمال إلى الله تعالى: سرورٌ تُدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأنَّ أمشي مع أخي في حاجة أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني مسجد المدينة - شهراً، ومن كفَّ غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاءً يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام» (٩).

وعن معاذ بن جبل ؓ قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: «لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت. ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل. قال: ثم تلا: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾» (١٠).

وعن عبد الله بن بسر ؓ أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فأخبرني بشيء أتشبّث به؟ قال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله» (١١).

إن شأن الصحابة مع الأعمال الصالحة عظيم - خاصة أبا بكر الصديق ؓ - فقد كان أعلى الصحابة همّة وأقواهم في العمل الصالح، وإليكم هذا الحديث المبين لذلك، عن

(٩) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٣٦٤٦).

(١٠) رواه الترمذي (٢٦١٦).

(١١) رواه الترمذي (٣٣٧٥).

أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟ قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: فمن تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟ قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟ قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، فقال رسول الله ﷺ: ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة» ^(١٢).

ولمّا كان عليه ﷺ من الخير والمسارة إليه والحرص عليه فإنه يُدعى يوم القيامة من جميع أبواب الجنة، كما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعِيَ من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعِيَ من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعِيَ من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دُعِيَ من باب الصدقة، فقال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما على من دُعِيَ من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يُدعى أحد من تلك الأبواب كلّها، قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم» ^(١٣).

فالله الله في الثبات على العمل الصالح بعد رمضان، فإن من علامات قبول الطاعة: الطاعة بعدها والمداومة عليها، فبذلك تُنال الحياة الطيبة، وعليه تُبنى السعادة، وبه تعلو الدرجات عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةًۦ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال تعالى مبيناً أن العمل الصالح سبب لقرب العبد من ربه ومضاعفة ثوابه وأجره: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآتِيَّتِي

(١٢) رواه مسلم (١٠٢٨).

(١٣) رواه البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧).

تَقَرَّبَكُمْ عِنْدَنَا لَفِيَّ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا
وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿ [سبأ: ٣٧].

قال مالك بن دينار رضي الله عنه: «رحم الله من لزم القول الطيب،
والعمل الصالح، والمداومة» ^(١٤).

وأخبر رضي الله عنه أن للمرء أخلاء ثلاثة، وهم متفاوتون في نفعه،
ومرافقته، والوقوف معه، فاثنان منهما يتخلىان عنه
ويتركانه، والثالث يبقى مصاحباً له، فيدخل معه القبر،
وهؤلاء الأخلاء هم: الأهل والمال والعمل.

يقول رضي الله عنه: «يَتَّبِع المِيتَ ثَلَاثَةٌ، فِيرْجِع اِثْنَانٌ وَيَبْقَى مَعَهُ
وَاحِدٌ: يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فِيرْجِع أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى
عَمَلُهُ» ^(١٥).

ومن الأعمال التي يُسْتَحَب للمسلم أن يحرص عليها
ويقوم بها بعد رمضان: صيام ستة أيام من شوال، يقول
رضي الله عنه: «من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال، كان
كصيام الدهر» ^(١٦)، أي: من أدى فريضة الصيام على الوجه
المشروع ثم أتبعها بصيام ست من شوال فكأنما صام الدهر
كله - أي: السنة جميعها -؛ لقوله رضي الله عنه: «من صام رمضان
وسِتّاً من شوال، فقد صام السَّنَةَ» ^(١٧)، ومراده رضي الله عنه أن من
فَعَلَ هذا يحصل له أجر صيام السَّنَةِ بتضعيف الأجر، وقد
جاء شرح تضعيف هذا الأجر في قوله رضي الله عنه: «صيام رمضان
بعشرة أشهر، وصيام السَّنَةِ أيام بشهرين، فذلك صيام
السَّنَةَ» ^(١٨).

وهذه الأيام الست يُشْرَع للمسلم المبادرة بصيامها،

(١٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٧٣/٢).

(١٥) رواه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠).

(١٦) رواه مسلم (١١٦٤).

(١٧) رواه ابن حبان (٣٦٣٥).

(١٨) رواه ابن خزيمة (٢١١٥).

والأولى على من كان عليه قضاء رمضان أن يسارع إلى قضاء ما عليه؛ لأن القضاء واجب، وستاً من شوال نافلة، والفرص أكد من النافلة، ولا يُشترط في صيام هذه الأيام التتابع والاتصال لإطلاقه ﷺ الصيام في شوال، وعليه فيصح صومها متصلة أو منقطعة، مجموعة أو متفرقة، فالأجر حاصلٌ وثابت بذلك كله، وقد دلَّ على صحة هذا قوله ﷺ: «**من صام ستة أيام بعد الفطر كان تمام السنة**» (١٩).

وليُعلم: أن موافقة الشرع في الصيام من شوال تتحقق بالإتيان بالعدد المذكور وهو ستة أيام؛ لأن هذا العدد مقصود لمشرعها وهو الله تعالى، وعليه فلا يُصار لغيره لما فيه من الاستدراك على الشرع والابتداع في الدين.

وختاماً: فالتواصي بالأعمال الصالحة ولزومها، والإقبال على العبادة والمواظبة عليها عمل صالح يحبه الله تعالى، وهو من هدي سلفنا الصالح، فما أحرانا بالاعتداء بهم والاتصاف بما كانوا عليه.

قال بلال بن سعد رضي الله عنه: «أدركتُ الناس يتحاثون على الأعمال الصالحة: الصلاة، والصيام، والزكاة، وفعل الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر...» (٢٠).
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

لمزيد من المطويات



(١٩) رواه ابن ماجه (١٧١٥).

(٢٠) رواه أحمد في الزهد (٢٣٠٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٢٣/٥).